الفكر مرآة الحسنات، وكفّارة السيئات، وضياء للقلوب، وفسحة للخلق، وإصابة في صلاح المعاد، واطلاع على العواقب، واستزادة في العلم. وهي خصلة لا يعبد الله بمثلها. الإمام الصادق عليه السلام

الضيافة العالمية:
صوم الفرد وصوم الأمة

الشيخ حسين كوراني

«أيها الناس .. إنّه قد أقبل إليكم شهر "..." دُعيتم فيه إلى ضيافة الله».

ذلك هو مُفتتَح الدعوة التي حملها خاتَم النبيّين إلى كلّ إنسان.

لا تقتصر هذه الدعوة على المؤمنين، ولا على المسلمين، بل تتعدّاهم إلى كلّ إنسان، ليأخذ موقعه النظري في رحلة البحث عن الحقيقة، ولتتّضح الرؤية ويتحدّد المسار، فيأخذ موقعه العملي في مدارج تجلّي الحقيقة، التي يُسمّى حدّها الأدنى «العدالة»، وهي بدورها الحدّ الأدنى للكمال الإنساني.

نظرة في مُفتتَح الدعوة النبوية، وختام آيات الصوم، كفيلة بإيضاح عالميّة هذه الضيافة الإلهيّة: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ البقرة:186.

وبديهيّ أنّ الرشد الإنساني رهن التزام الحقيقة، وأنّ دعوة التزام الحقيقة لا تستثني أحداً من الناس.

* في الدلالات

في عصر الفهم الإفتراسي للعولمة، يشتدّ التمايز بين مدرسة العقل الذي يضبط حركة الغرائز، وبين مدرسة الغرائز التي تُهيمن على العقل وتستعمر كلّ مواقعه، «كم من عقلٍ أسير تحت هوىً أمير» كما يُعبّر الإمام علي عليه السلام.

والنتيجة الطبيعية لذلك هي اختلال منظومة القِيَم، فإذا بالقذيفة السبعة أطنان، «قيمة»! تفوق حقوق الإنسان! ويخرس عن التنديد بها أكثر الصائمين، وإذا بالشعب ـ أيّ شعب ـ أصغرُ من أن يشكّل وحدة وكيانيّة. إن هو إلا مدى للهيمنة وفرض السلطة والنفوذ، وسوق لتصريف الإنتاج، وخانة في جداول الربحيّة والجدوى الإقتصادية.

حيث يسود منطق غرائزي من فَيْح هذا الحمإ، هل يعقل أن تكون للفرد قيمة إلا قيمة السلعة، أو حديث عنه إلا بمقدار الحاجة إليه؟

لم تعد إنسانية الإنسان المحورَ ومصبَّ العناية والإهتمام، بل «شيئيّته»: كونه شيئاً يدخل في حساب الربح والخسارة، إنْ في المجال التعليمي، كرقم «قِسط» يُلحظ في الناتج الإجمالي، أو في المجال التنظيمي كرقم يُضاف إلى المؤيّدين، أو في المجال الإنتخابي، أو في الحديث عن المواطنية التي تمسّ حاجة الجميع إلى المناداة بها، كلٌّ وفق حساباته: الدولة للإستقواء على المعارضة، والمعارضة للنيّ ذراع الدولة، وهكذا.

في عصر هذه بعض سماته، يحتاج المرء إلى كثير من الجهد ليفهم دلالات أن يدعو الله تعالى، «الحقيقةُ المطلقة»، جميعَ الناس إلى ضيافته.

تتهاوى أوجهُ الشبه بين هذه الدعوة وكلّ الدعوات، ويسجد العقل على أعتابها، ويعصف بالقلب الهيام، مردّداً: «ألحمد لله الذي يَحلُم عنّي حتى كأني لا ذنب لي»! «إنك تدعوني فأُولّي عنك، وتتحبّب إليّ فأتبغّض إليك، وتتودّد إليّ فلا أقبل منك، كأنّ لي التطوّل عليك، فلم يمنعك ذلك من الرحمة لي والإحسان إليّ».

إنّها دعوة كريمة، محورُها إنسانيّة الإنسان لا شيئيّتُه. الإنسانيّة، تلك الجوهرة الفريدة التي أرادها الله تعالى عصيّة على كلّ ألوان الإكراه والهيمنة، فضلاً عن القمع أوالبطش، فلا تنفعلُ إلا بإرادتها هي، ولا تستجيب إلا لها: ﴿لا إكراه في الدين، قد تبيّن الرّشد من الغيّ﴾!

هذه الجوهرة الإلهيّة تمسك حقيقة بناصية الإختيار، ولها وحدها حقُّ تقرير المصير، وهي مدعوّة دائماً إلى صقل ذاتها واكتشاف خزين طاقاتها، وإزالة كلّ الرّكام عنها، حتى إذا كان بحجم الدنيا وجبابرتِها وكلّ أخطبوطهم الإعلامي بل الإعلاني الذي ينفخ في أتون النزوات و الحيوانيّة والإفتراس. الإنسانية نفحةٌ من روح الله، و كلمتُه، وأمرُه. إنها المشروع الإلهي. مشروع: «يا ابن آدم خلقتك للبقاء. أنا حيٌّ لا أموت، أريدك حيّاً لا تموت».

كم يحرص الأب الرؤوف على استصلاح فلذة كبده حتى إذا كان عاقّاً، بل كم تُضحّي الأمّ من أجله، فهل ندرك أن كلّ ما بذله الآباء والأمهات عبر القرون، الغابر منها والآتي، ليس إلا رشحة من فيض حبّ الله تعالى لنا. وهل هذه الدعوة الكريمة والضيافة الإلهيّة إلا ومضةُ سنىً، وطيف حقيقة، والتماع برقٍ من معدن العَظَمة؟ الأسود والأبيض، العربي والعجمي، المؤمن والكافر، الغارق في بحار المعاصي والحيوانيّة بسوء اختياره، والمُقبِل على الحقيقة، وقد خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً... جميعهم يُصغون إلى نداء واحد: ﴿لا تقنطوا من رحمة الله﴾!!

* هدف الدعوة - الضيافة

إلا أنّ هذه الرحمة الإلهية الواسعة، لا ينبغي أن تُفهم

انفتاحاً مغلوطاً ألِفناه ودرجنا عليه، إلى حيث تلغي المرونة الموقف، وتصادر المصلحة الآنية المبدأ، ويتداخل التكتيك بالإستراتيجية حتى تغدو طارئاً «تكتيكياً» ثقيل الوطأة والظلّ، ويستحيل هذا المُدّعى انفتاحاً تماهياً مع قول الشاعر:

سلامٌ على كُفرٍ يوحّد بيننا وأهلاً وسهلاً بعده بجهنّم!!

إنّ هذا هو النقيض لإنسانية الإنسان التي تدور مدار الحقيقة. وبما أنّ الوصول إلى الحقيقة هو الهدف من شهر رمضان، فلا يُعقل أن تكون الدعوة مصادرةً للهدف.

نحن مدعوّون من أجل اكتشاف القِيَم التي تحول بيننا وبينها الحُجُب. مدعوّون لنُدرك أهمية التفريق بين الوهم والمنطق، بين العقل والنكراء ـ الغريزة المتربّعة على عرش العقل المُستلَب ـ بين الظاهر والباطن، بين الروح و الجسد. مدعوّون كي نرى الأمور كما هي فلا نكبّر صغيراً، ولا نصغّر كبيراً.

ونقطة الدائرة في ذلك كلّه معرفة النفس: «مَن عرف نفسه فقد عرف ربه».

الإنسان روح و جسد، وجوهر الروح الإرادة، و جوهر الإرادة العزم، وجوهر العزم النِّية، وقيمة النِّية بسلامتها، فالنِّية حقّ أو باطل، أو مزيج من هذا وذاك. ولشدّ ما تكون باطلاً بلبوس الحقّ.

ولا تُتاح سلامة النِّية إلا بالمعرفة، فهي من الروح الروح، ولا تَشوّه للنِّية وبالتالي لجوهرة الإنسانية إلا بالباطل، وهو في حقيقته خلطٌ بين حكم العقل وجور الغرائز. ومنشأ ذلك كلّه العكوف على تلبية حاجات الجسد على حساب الروح، وهو ما يتمّ إنتاجه في دائرة النفس الواهمة، لضحالة معرفتها، الأمّارة بالسوء، لجهلها. إنّ دورة تدريبية على تغليب مُقتضيات الروح على متطلّبات الجسد الكثيرة التي يكفيه بعضُها، كفيلة ـ شرط التنبّه والإستمرار ـ بتصحيح المسار.

فهل نحن فاعلون؟ هل نريد أن نصوم؟

*** حقيقة الصيام**

الصوم فعل ممانعة واعتراض، ينطلق مع القسم الأول من كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» إيذاناً ببدء عملية الصوم عن الباطل، تطهيراً للروح من شوائبه، وتأهيلاً لها للدخول إلى حرم الحقيقة المطلقة «إلا الله».

وليس شهر الصوم إلا تكثيفاً لعمليّة مستمرّة. وليست هذه الضيافة إلا ضيافة خاصّة في سياق العامّة الدائمة. وبلغة متداولة: يُفهم الصوم من بعيد من خلال التأمل في خدمة العلَم التي هي تكثيفٌ للروح الوطنية، المفترض توفّرها على الدوام، وإنما يتمّ تعزيزها خلال مدّة التجنيد.

الصوم عملية دائمة، ومرماها الإنسانية الصالحة، المعبَّر عنها بالتقوى، التي تتفاوت مراتبها، بتفاوت درجة صقل النفس، لتظهر في مرآتها مكارم الأخلاق. وشهر رمضان موسم الإعداد، والمناخ الأفضل للقيام بهذه المهمة: ﴿لعلّكم تتقون﴾.

تتلخّص رسالة الصوم في إدراك حقيقة التوازن والعدالة، وإعطاء كلّ ذي حقّ حقَّه، فليس للروح أن تُلغي الجسد، وبديهيّ أنه ليس للجسد أن يتطاول على الروح، فضلاً عن الإصرار على إلغائها. إنما هو وسيلة لتحقيق أهدافها، والعكس مأساة، إنها الحيوانية ﴿بل أضلّ سبيلا﴾.

***صوم الفرد.. والأمة**

للفرد شخصيته وهي روح وجسد، وللأمّة شخصيتها وهي ظاهر ومعنى، قشر ولبّ، شكل وحقيقة، ولئن كانت الروح باطن الفرد وحقيقته، فإنّ القِيَم معنى الأمة ولبُّها والحقيقة. وكما يكون الفرد صفراً في الميزان ما لم يُعْنَ بإنسانيته، تكون الأمّة صفراً إذا فقدت المعنى والباطن، حتى إذا امتلكت في الظاهر أعظم الأدوات الماديّة.

لا تنبعُ قيمة الفرد من ظاهره مهما علا في الجمال كعبُه، ومهما أُوتي من حظٍّ عظيم في الموقع، ووفرة الإمكانات.

مدرسة الجمال في الإسلام هي جمال الباطن الذي يفيض على الظاهر بهاءً وألقاً متأصّلَين، في مقابل مدرسة الظاهر التي هي التصنّع والإدّعاء، المصرّة باستعصاء على التفلّت من الإعتراف بالآخر «الباطن» فلا تُقيم له وزناً. كذلك لا تنبعُ قيمة الأمّة من بريق المظاهر، وعظيم البهارج، والأدوات والوسائل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ الكهف: 7.

صوم الفرد امتناعٌ مدروسٌ عن المُغريات طلباً لما هو أسمى، وصوم الأمّة كذلك.

صوم الفرد تغليبٌ لمُقتضيات المعنى والروح، الذي يعني تغليباً للعقل على جامح الرغبات.

وصوم الأمة انتصارٌ للقِيَم على الترغيب والترهيب، الأمر الذي يعني التزام الحقّ مهما غلا الثمن.

وفي طليعة هذه القِيَم: «الموت في حياتكم مقهورين، والحياة في موتكم قاهرين».

وليس صوم الفرد إلا مدخلاً إلى صوم الأمة. الصوم إذاً، إعداد للفرد ليكون المقاومَ الصلب في مجتمع المقاومة الذي لا يُمكن أن يُعطي بيده إعطاء الذليل، ولا يُقرّ على الظلم إقرار العبيد.

ولقد رأينا بما لا مزيدَ عليه كيف أنّ آلافاً من الصائمين الحقيقيّين من مجاهدي المقاومة الإسلامية والإنتفاضة تمكّنوا بحول الله تعالى من أن يمنحوا الأمّة من اليقين بإمكان تحقيق النصر، ما عجزت عن أدنى سفحه كلّ الأنظمة طيلة أكثر من نصف قرن.

إن أبسط تعبيرات الوفاء للمقاومة في فلسطين ولبنان أن نقرّر الصوم عن البضائع الأميركية، بل أن نربأ بأنفسنا عنها على وهج المجازر والقذائف الأطنان التي تستهدف «خطأً»! حتى دور العبادة ومستشفيات الولادة، ليكون ذلك دليلاً على صوم حقيقي للفرد والأمّة.

فمتى نصوم؟

الإمام العارف بالحقّ

السيد محمد حسين رئيس زاده *

الإمام الخميني شخصية نادرة من بين الشخصيات التي ظهرت في العصور الأخيرة؛ فقد جمع صفات وخصائل تبدو للوهلة الاولى متضادّة فلا تجتمع في نفس واحدة أو في زمن واحد. كان فقيهاً، وفيلسوفاً، ومفسّراً كبيراً، وثوريّاً ومجاهداً، ورجلاً سياسيّاً وقياديّاً، وفي الوقت نفسه كان عارفاً أخلاقياً، وله آثار مكتوبة ومدوّنة في كلّ من هذه المجالات. إذاً هو شخصية جامعة وشاملة. والمعروف أنّ الشخصيات الكبيرة والسامية والرفيعة والمرموقة لا تُعرف غالباً في زمانها، فهي كالجبال يتعذّر رؤيتها من قرب بل ينبغي أن يُرى إليها من مسافة حتى تصبح في كامل مدار الرؤية.

ولشخصية الإمام الفذّة إبداعات وابتكارات ورُؤى في الفقه والفلسفة والأدب والسياسة، لكنّ العرفان عنده شكّل طريق الوصول والتقرّب إلى الله. ولقد كتب الكثير من الدراسات العرفانيّة والأخلاقيّة ضمن وجهتين:

العرفان النظريّ والعرفان العمليّ، وكلاهما رسم الطريق لبلوغ المعرفة الإلهيّة. كما بلغ في مسلكه الروحيّ درجاتٍ عُليا تظهر لنا من خلال عدد من كتبه وأسفاره مثل «مصباح الهداية»، «شرح دعاء السحر»، «آداب الصلاة»، «الأربعون»، و«جهاد النفس».

يُبيِّن العرفان النظري لطالبه كيفية السير للوصول إلى الله، وله موضوع وغاية كسائر العلوم.

وأما العرفان العملي فهو يعني حركة الانسان الواقعية في منازل السير والسلوك: اليقظة والتخلية والتجلية والتحلية واليقين والفناء. وذلك ما تفصّلهُ الحكمة المتعالية للحكيم الإلهي مُلاّصدرا في «الأسفار الأربعة» المعروفة وهي:

السفر من الخلق إلى الحقّ، ومن الحقّ إلى الحقّ بالحقّ، ومن الحقّ إلى الخلق بالحقّ، ومن الخلق إلى الخلق بالحقّ. والسفر الأخير الرابع هو ما تجلّت فيه حركة الإمام في ما نسمّيه بالعرفان المجتمعيّ.

عرفان الإمام الخميني يرجع في الحقيقة إلى الأديان السماويّة والدين المحمديّ الأصيل. والعارف الحقيقيّ عنده هو الرسول الأعظم ﷺ والأئمة الأطهار عليهم السلام، لذا كان عرفانه من الصنف الإيجابي لا السلبي. ولمّا كان منطلقُ العرفان عنده هو الدّين فقد ظهر ذلك من خلال ثلاثة أركان:

– درك حقيقة التوحيد، وأنّ الخلق منحصر في ذات الله وليس سواه. ﴿ .فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ .. ﴾ البقرة:115، فالمخلوقات كلّها هي مظاهر الله.

– حركة التوحيد والوصول إلى الله يكونان عن طريق الخلافة الإلهيّة.

– العلاقة الوطيدة بين الحقيقة الباطنية (التوحيد والولاية) للدين، والحقيقة الظاهرية وهي الشريعة والفقه.

فالنظرة إلى الدين هي بهذا المعنى نظرة جامعة وشاملة؛ ذلك أنّ الدين عند الإمام قائمٌ على أبعاد ثلاثة هي: التوحيد والولاية والشريعة.

أما أبرز مميزات العرفان عنده فهي:

– عدم العزلة عن المجتمع.

– عدم اعتزال القدرة والثروة بل استخدامهما في طريق الوصول إلى الله.

– لا يدعو إلى الصلح والسلم بالمطلق، بل هو يناضل ويجاهد الكفّار أينما وُجدوا.

– التوجّه إلى الفرد والمجتمع معاً، فالإمام لم يحصر العرفان بالفرد فقط، بل هو يعتقد بأنّه للمجتمع أيضاً. وبحسب منهجه الأساسي، أنّ العرفان الفرديّ يُمكن أن يلتقي مع الرؤية الإباحية والسكولارية والمجتمع الفاسد بخلاف العرفان المجتمعي.

في الفرديّة يُمكن أن يحصل الابتعاد عن الشريعة كما هو شائع بين طوائف كثيرة من أهل التصوّف، كما أنه لا يُنتج حكومة أو تغييراً للنظام الفاسد، وبالتالي لا يقدّم للبشر نموذجاً للدولة والمجتمع، في حين أنّ الرؤية المجتمعيّة تُفضي إلى الحكومة العالمية العادلة. وليس المقصود هنا تهذيب الفرد بل تهذيب المجتمع، إذ إنّ عدم تهذيب المجتمع هو المانع لتهذيب الفرد أيضاً.

صحيح أنّ العرفان المجتمعيّ هو كالعرفان الشخصيّ في عملية السير والسلوك، وأنّه يعني البدء من الشريعة ثمّ الولاية ثمّ التوحيد. والولاية في المجتمع تحتاج إلى القانون، والقانون الصالح هو القانون الإلهيّ. لذا فالتهذيب الاجتماعي لن تقوم له قائمة في ضوء الثقافة الإباحية، أو من خلال العلمانية الإلحادية.

في العرفان الاجتماعي الناس على ثلاثة: مؤمن، كافر ومنافق، وبينهم دائماً صراعٌ بين حقٍّ وباطل، وهذا الصراع

تاريخيّ ومستمرّ، والغَلبة والنصر المطلق لا بد من أن يكونا لأهل الحق. فالجهاد هو أفضل سُبُل السير والسلوك، لأنّه باب من أبواب الجنة فتحَه الله لخاصّة أوليائه.

ميزة الإمام الخميني في هذه المنطقة المعرفيّة تتمثّل في نقل السفر العرفاني من الشخص إلى ساحة المجتمع، بحيث يسافر الشخص والمجتمع في مراحل السلوك، وتظهر نتائج هذه السفرة في المجتمع على قدرٍ وازنٍ وبيِّنٍ من الشجاعة والسخاء.

ولهذه الميزة عند الإمام مقدّمتان:

الأولى: من خلال القرآن، والاعتقاد أنّ للأمّة بما هي أمّة شخصية وهوية: ﴿ ..كذلك زيّنا لكلّ أُمّةٍ عملَهم.. ﴾، ﴿ ولكلّ أمّةٍ أَجَل فإذا جاء أَجلُهم.. ﴾، ﴿ ..كلّ أُمّةٍ تُدعى إلى كتابها.. ﴾...

الثانية: العرفان العملي ويعني حركة الإنسان في منازل السير والسلوك، فالسالك عندما يدخل إلى منزل من منازل السلوك يتغيّر ويتحوّل بحيث يصبح من سِنخ ذلك المنزل.

يقول ابن سينا في «الإشارات والتنبيهات»: «العارف شجاع، فكيف لا وهو بمعزل عن تقية الموت، وهو جواد سخيّ، فكيف لا وهو بمعزل عن محبة الباطل، فالشجاعة هي الوصف الأول للعارف لأنّ شجاعة العارف أمر طبيعي».

لقد استطاع الإمام الخميني أن يصوغ عملاً ونظراً، هذا السفر العرفاني وينقله من ساحة الشخص إلى ساحة المجتمع. وقد ظهرت بعد فترة، الحالات العرفانية من الشجاعة والسخاء في المجتمع الإيراني، فقام الشعب في وجه الاستكبار وقدم التضحيات، وظهرت حالات أخرى مثل الجود والسخاء بالرغم من حاجته إلى أمواله في الداخل، ومع ذلك لم ينسَ قضية الشعب الفلسطيني وسائر قضايا المسلمين والشعوب المظلومة.

خلاصة القول أنّ السبيل إلى العرفان عند الإمام يقوم على الارتباط الوثيق بين الحقّ والخلق، حيث لا اختلاف عنده في فضاء الحقائق الوجودية. وهكذا فإنّ الطريق الذي يأخذ به في مدرسة السير والسلوك هو الأبعاد الثلاثة التالية: الله والانسان والعالم، مع ما يترتّب على هذه الأبعاد من قِيَم روحيّة وأخلاقيّة وعِرفانيّة للوصول إلى المعرفة الإلهيّة ومقام الإنسان الكامل. وبذلك يصبح الإنسان عنده جديراً بالتمثّل التامّ لصفات الله وأسمائه، مع الأخذ بعين الإعتبار أنّ نهج الشموليّة يمنحها الإتجاه للتوحّد مع الحقائق التي تسبق وجود الإنسان، والمرتبطة به من حيث صِلته بالله، وهي التي تقوم على أساسٍ متينٍ من الثوابت الغيبيّة والفعليّة.

* المستشار الثقافي للجمهورية الإسلامية الإيرانية في لبنان

موقع ضيافة الله من هدف الأنبياء

هدف الأنبياء: تحرير الإنسان من قيود شهواته

ينبغي أن يتحوّل الإنسان وينتقل بعد هذه الضيافة من طبيعته الحيوانية إلى حقيقته الإنسانية، ومن الظلمات التي يعيشها إلى النور المطلق الذي يتبعه كلّ ما في الكون.

إن كلّ دعوات الأنبياء ورسالاتهم تنصبّ في تخليص الإنسان من حيرته وضياعه، وتصحيح مسيره وهدايته إلى الطريق القويم: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ الفاتحة:6، ﴿ ..إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ هود:56.

الدنيا هي نفس الإنسان وشهواته ورغباته، والتي تقيد كلّ مَن يلهث وراءها.

كلّ ما في الدنيا من ظلمات هو نتيجة تعلّقنا بها وبأوهامها وخرافاتها وزخارفها.

لقد بُعث الأنبياء لتخليص الإنسان من الزخارف الدنيوية والشهوات النفسية ـ والتي تخالف طبيعة الإنسان وفطرته ـ وإدخاله إلى عالم النور، والإسلام هو خير دين للوصول إلى هذه الأهداف.

تتلخّص وظيفة الدعاء في تهيئة النفوس للتخلّص من الشهوات التي تدمّر الإنسان، والتحرّر من الزخارف الدنيوية التي قادته إلى الضياع والحيرة، ومنعته من الوصول إلى الإنسانية الحقيقية.

طريق الإنسانية هو الصراط المستقيم الذي أشار إليه الأئمّة في أدعيتهم ومناجاتهم بطريقة غير مباشرة، لعدم قدرتهم على الدعوة الظاهرية والعلنيّة.

لم يكن هدف الأنبياء والأولياء السيطرة والاستيلاء، بل كان هدفهم هداية الناس وهداية الظالمين والجهلة إلى الطريق القويم لِيَصلوا من خلال ذلك إلى الله سبحانه وتعالى: ﴿ ..إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ هود:56، وليتركوا هذه الدنيا الفانية ويسيروا نحو النور المطلق.

وظيفة الأنبياء ـ إذاً ـ هي إيصالنا إلى هذا النور ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ .. ﴾ البقرة:257، والطاغوت هو عدوّ الإنسان وعدوّ الله تعالى.

من كلمات الإمام الخميني حول ضيافة الله في شهر رمضان

حضور الغرب... حاضريّة الإسلام

محمود حيدر*

عندما وضع المؤرّخ وعالم الاجتماع الفرنسي مكسيم رودنسون كتابه المعروف «جاذبية الإسلام» في ستينيات القرن الفائت، وجد كثيرون أن هذا الآتي من مدارج اليسار الماركسي، شاء أن يحفر سبيلاً معاكساً لما كان مألوفاً لدى علماء الاستشراق. وذهب آخرون إلى أن الرجل أخذته أبحاثه نحو توقّعات «غير معقولة» حول موقعية الإسلام الحاسمة في تحديد المستقبل العالمي.... ويومها لم يُسفر النّقاش حول أفكاره عن نظر جديد للإسلام يعيد رسم خريطة معرفيّة تغاير الثوابت الإيديولوجية التي ترسّخت تاريخياً بفعل ما كتبه المستشرقون.

لقد لاحظ رودنسون ما لم يلحظُه السواد الأعظم من أهل الاستشراق الغربي، لجهة أن الحملات الصليبية ليست هي التي أنشأت الصورة الثقافية السلبية عن الإسلام، وإنما كانت الصليبية نفسها نتيجة لتلك الصورة. فالإرهاصات الثقافية التي سبقت تلك الحملات كانت ـ حسب رودنسون ـ وليدة الوحدة الإيديولوجية للعالم المسيحي اللاتيني التي أدّت بدورها إلى بلورة صورة «العدو المسلم»، وإلى توجيه الطاقات نحو الصليبية في الوقت نفسه.

السياق الإجمالي للرؤية الثقافية الغربية لم يتبدّل. فالتحوّلات التي وقعت على امتداد النصف الثاني من القرن العشرين حتى يومنا هذا، جاءت لتؤكّد اتّساق الرؤية وتواصلها.

ولئن جاءت الأطروحة التي بسطها رودنسون، على نصاب الدّهشة المعرفيّة الإيجابيّة، فإنّ ما نجده في الخطاب الثقافي الغربي اليوم حيال الإسلام جاء على نصاب مقلوب. وليست أطروحة «الإسلاموفوبيا» التي شقّت سبيلها بلا هوادة في ذهنية الغرب، إلاّ واحدة من التجلّيات المستأنفة للإيدولوجيا الاستشراقية.

مع صرف النظر عن طبيعة هذا التجلّي المستأنف، فإنّ لنا هنا أن نرى إلى الإسلام كما هو الآن في ميزان الغرب، باعتباره حاضراً وبجاذبية استثنائية في تشكيل خرائط المعرفة العالمية في بدايات القرن الحادي والعشرين.

لكن لو عدنا إلى أصل القضية، لرأينا الوضعية التالية :

كلما انعقد الكلام حول ثنائية الإسلام والغرب، عاد ما بينهما من اتصال وانفصال إلى سيرته الأولى. ما من شيء للإسلام على الغرب، أو للغرب على الإسلام، إلاّ رُدَّ إلى مستهلّ الإشكال، أي إلى تلك اللحظة التي أدرك فيها الغرب، بما هو غرب، أنّ استئناف التاريخ، وإعادة ترتيبه، لا يتحصَّلان إلاّ بآخر يواجهه، ليحاوره أو يجادله، أو ليُهيمن عليه. إنّها أيضاً اللحظة نفسها، التي يُدرك فيها المسلمون أنّهم، على وجه القصد، هم ذلك الآخر.

ما كان الأمر يحتاج إلى كثير مشقّة لاختبار مثل هذا الإدراك. الحافظة الجمعيّة للمسلمين مكتظّة بما لا حصر له من الحوادث والوقائع والأخبار. أما أرشيف الغرب فهو مشحون بتيارات، واستراتيجيات، وأفكار لا تنفكّ ترى إلى عالم الإسلام كفضاء مفتوح على تمرينات الاحتلال والسيطرة.

منذ الإرهاصات الأُولى لنهضة الغرب، قبل نحو أربعة قرون، أخذت تنمو سيرورة اللقاء بالإسلام، غير أنّها طُبعت على غائيّة سالبة من أوّلها. ولقد رأينا كيف ستؤول إلى ضرب من لقاء، تبيّن أنه لن يؤدّى على النحو المرسوم له إلا على أرض الزّيغ، والكمون، ومُضمَرات الشكّ. كان على الغرب الذي حمل حداثته الفتيّة لينشرها على الملأ، أن يتّصل بإسلام الشرق اتصال الغالب بأمره. كأنّما قدَر الغرب في حداثته الأولى، ألاّ يرى إلى جغرافيّات الإسلام، إلاّ كمُتّسعٍ مديدٍ، يزخر بقابليّات التلقّي، والتمثّل، والإخضاع.

مرّة أخرى تضع أطروحة «الإسلام والغرب» الكلام على نشأته الأولى. فتلك الأطروحة على الرغم من تقادم الزمان عليها، لا تزال حيّة تسعى. تفعل وتنفعل، وترسم وجه العالم وحدوده. إنها أكثر أطروحات الزمن الجديد مثاراً للجدل. لا يعود السبب في ذلك كله إلى سوء الفهم المتبادل بين طرفي الأطروحة وحسب، بل إنّ سوء الفهم هو أيضاً شقيقُ ضديّة حضاريّة وثقافيّة، وجدت بدايتها الفعليّة مع صعود الدولة القومية في الغرب، واستشراء غريزة التوسع....

لم يكن لجغرافية الإسلام الماثلة في عين الغرب كأمداء مترامية للغزو والانتهاب، إلاّ أن تردّ الفعل بفعل معاكس. وهو ردّ غالباً ما كان ـ بحكم ميزان القوة، وتقنيات السيطرة الجائرة ـ جواباً إرتدادياً فظيع الأثر. فلسوف يترتّب على الفعل وجوابه الارتدادي أفهام ومعارف وثقافات، لا تستوي إلا على حدّ الرفض والاختصام.

مع ذلك، لم يكن في سيرورة «اللقاء اللّدود» بين الإسلام والغرب من انقطاع. ظلّت هذه السيرورة، على الرغم من الحروب الضروس، والهُدن المتواترة، والتسويات الموقوفة، على نحو ما من التواصل. غير أنّ هذا التواصل ما كان ليأتي على أجنحة المصادفة. إنّه تواصل ينهض على مفارقة بيِّنة: وجهها الأول، الغزو والسيطرة، وأما وجهها الثاني فهو التحقّق، والفهم، والتعرَّف، وإعادة صوغ ثنائيّة الشرق والغرب على صورة أخرى. ولئن كان الوجه الأول هو من طبائع الإمبراطوريات الطامحة، فالوجه الثاني هو ناتج عقل الاستشراق وطبائعه.

ما فعلته الإمبراطوريات الطامحة كان فعلاً مشهوداً في نسيج الزمن العربي الإسلامي كلّه، فلقد كان لأرض الإسلام من كوارثه ما لا يُحصى. أما ما فعله الاستشراق فإنّه أنجزَ من القراءات، وابتنى من الأحكام، ما جعل صورة الإسلام والمسلمين مكسوّة بضباب كثيف. فلو رأينا إلى المشهد الإجمالي لتبيَّن أنّ من المستشرقين من أقبل على حسن الظّن، فكتب في الإسلام وحوله، ما لا شائبة فيه، في حين سيمضى بعض آخر منه إلى الحدّ الذي وُظِّفت فيه أعماله وأبحاثه وقراءاته ضمن أوعية الإمبراطوريات المُهيمنة.

الآن... هل ثمّة منطقة وسطى يُمكن أن نعثر فيها على استشراق معرفيّ ينظر إلى المجال الإسلامي الفسيح بعين الواقع وشروطه؟

...ربما، ولو كان مثل هذا الإمكان محدود الشأن. لكنّ داء الغَلَبَة سيُلقي بظلّه على أكثر تلك الإضاءات في مسار الإستشراق العقلاني. ولو عايّنا قليلاً لوجدنا هذا الداء هو نفسه داء الحداثة بامتياز، ذلك الذي ساد، وشاع، واستبدّ سلطانه على امتداد القرنين المنصرمين.

هذا هو السياق الأكثر غَلَبة في جدالية الغرب / الإسلام. سياقٌ لا ينفكّ يحكم عقل الغرب المعاصر، من «الحرب العادلة» إلى «صدام الحضارات» إلى مقولة «الإسلاموفوبيا».

ومهما يكن من تفاوت في مدارج تفكير الغرب حيال الإسلام، فإنّ حاضريّة الإسلام ـ على ما يقرّر جمعٌ من فلاسفة الغرب المعاصرين ـ هي السِمة التي ستؤسّس للعالم صورته الآتية. فالإسلام حاضر حضور العين في فضاء الغرب اللامتناهي. لقد صار جزءاً منه بدون أن يذوي فيه، وقيمةً من قِيَمِه بدون أن يضمحلّ فيها. كذلك سيبقى لوناً مائزاً من ألوانه الكبرى.

* باحث ورئيس تحرير «مدارات غربية»

الإمام الصادق وأدب الحوار

قال المُفضّل بن عمر صاحب كتاب «توحيد المفضل»:

كنت ذات يوم بعد العصر جالساً في الروضة (النبوية) بين القبر والمنبر، وأنا مفكّر في ما خصّ الله تعالى به سيدنا محمداً صلى الله عليه وعلى آله من الشرف والفضائل، وما منحَه وأعطاه وشرّفه وحباه، ممّا يعرفه الجمهور من الأُمة، وما جهلوه من فضله وعظيم منزلته، وخطير مرتبته، فإني لَكذلك إذ أقبل ابن أبي العوجاء (معروف بإلحاده) فجلس بحيث أسمع كلامه.

فلما استقرّ به المجلس جاء بعض أصحابه فجلس إليه. فتكلّم ابن أبي العوجاء فقال: «لقد بلغ صاحب هذا القبر العزّ بكماله، وحاز الشرف بجميع خصاله، ونال الحَظوة في كلّ أحواله».

فقال له صاحبه: «إنه كان فيلسوفاً ادّعى المرتبة العظمى "..." فلمّا استجاب لدعوته العقلاء والفصحاء والخطباء، دخل الناس في دينه أفواجاً..».

فقال ابن أبي العوجاء: «دع ذكر محمد، فقد تحيّر فيه عقلي، وضلّ في أمره فكري. وحدّثنا في الأصل الذي نمشي له..»، ثمّ ذكر ابتداءَ الأشياء، وزعم ذلك بإهمال لا صنعة فيه ولا تقدير، ولا صانع ولا مدبّر، بل الأشياء تتكوّن من ذاتها بلا مدبّر، وعلى هذا كانت الدنيا.. لم تزل ولا تزال.

قال المفضل: فلم أملك نفسي غضباً وغيظا وحنقاً، فقلت: «يا عدوّ الله، أَلحدتَ في دين الله، وأنكرتَ الباري جلّ قدسه الذي خلقك في أحسن تقويم، "..." فلو تفكّرت في نفسك "..." لوجدتَ دلائلَ الربوبيّة وآثار الصّنعة فيك قائمة..».

فقال ابن أبي العوجاء: «يا هذا، "..." إنْ كنتَ من أصحاب جعفر بن محمد الصادق فما هكذا تُخاطبنا، ولا بمثل دليلك تُجادل فينا. ولقد سمع من كلامنا أكثر ممّا سمعتْ، فما أفحشَ خطابَنا، ولا تعدّى في جوابنا، وإنّه الحليم الرّزين، العاقل الرّصين، لا يعتريه خَرقٌ ولا طيش ولا نَزَق. يسمع كلامنا، ويُصغي إلينا، ويتعرّف حجّتنا، حتى إذا استفرغنا ما عندنا، وظننا أنّا قد قطعناه، دحضَ حجّتنا بكلام يسير، وخطاب قصير، يُلزِمُنا الحُجّة، ويَقطع العذر، ولا نستطيع لجوابه ردّاً، فإن كنتَ من أصحابه فخاطبنا بمثل خطابه».

قال المفضل: فخرجتُ من المسجد محزوناً مفكّراً فيما بُلِيَ به الإسلام وأهلُه "..." فدخلتُ على مولاي الصادق عليه السلام، فرآني مُنكسراً فقال: ما لك؟ فأخبرته بما سمعتُ من الدّهريّيْن، وبما رددتُ عليهما. فقال عليه السلام: «يا مُفضّل، لأُلقِيَنّ عليك من حكمة الباري جلّ وعلا وتقدّس اسمه في خَلق العالم "..." ما يعتبر به المُعتبرون، ويسكن إلى معرفته المؤمنون، ويتحيّر فيه المُلحدون... فَبكّر عليّ غداً...».

ثم يُورد المفضل ما أملاه عليه الإمام الصادق عليه السلام، وهو ما عُرف بـ«توحيد المفضل».